محمد محفوظ

الأيدلوجيا والتعصب

لعلنا لا نجانب الصواب ، حين القول : أن كل نزعة أيدلوجية منغلقة ، هي بالضرورة صانعة أو حاضنة للتعصب ، وطرد المختلف ، ونبذ المغاير . . لأن النزعات الأيدلوجية المنغلقة بطبيعتها ووفق بنيتها الداخلية ، لا ترى الحق والحقيقة إلا لديها

، ولا يتسع عقلها وقلبها وحسها ، إلى مشروعات أو نظريات مغايرة أو مختلفة معها . . لذلك ثمة صلة عميقة تربط النزعات الأيدلوجية المغلقة بصرف النظر عن مضمونها وآفة التعصب الأعمى وكل مخزونها العدائي والإقصائي للآخرين . .

فالنزعات الأيدلوجية المغلقة الدينية أو الوضعية ، تكون ممهدة وراعية لكل النزوعات التعصبية التي تنشأ إما من قلب هذه النزعات الأيدلوجية أو على ضفافها وهامشها . .لذلك نجد أن هذه النزعات الأيدلوجية حينما حكمت وسادت في الفضاء الاجتماعي والسياسي ، فإنها استخدمت أدوات الدولة ومقدرات السلطة لتعميم قناعاتها ونظامها الفكري ، ومارست كل أشكال الحيف والقهر والظلم بحق كل الوجودات الاجتماعية المغايرة لها أو غير المنسجمة معها سواء على مستوى الأصول أو مستوى الفروع . . وذات الممارسة والسلوك ، مارست النزعات الأيدلوجية الدينية المغلقة والدوغمائية ، فإنها حولت الدين ومنظومته المعيارية كغطاء ومسوغ لطرد المختلفين معها ونبذ المتمايزين مع تفسيرها وقناعاتها المركزية والفرعية . . وما تمارسه الجماعات الأيدلوجية الدينية المغلقة والتعصبية من تكفير الناس وقتلهم والتفنن في إيذائهم المادي والمعنوي ، ما هو إلا تجسيد عملي للقناعة الفكرية الآنفة الذكر ، أن كل منظومة أيدلوجية مغلقة بصرف النظر عن جوهرها الفكري ، هي بالضرورة صانعة للتعصب ، ومشجعة للمفاصلة الشعورية والعملية مع المختلفين

مهما كانت درجة الاختلاف والتباين . . لأن المنظومات الفكرية المغلقة ، لا ترحب بالتعدد ، وتنبذ الاختلاف ، وتحارب ثقافة السؤال ، وترفض النقد والمراجعة . . وتغطي كل هذه الممارسات الشائنة بعقلية تعصبية ، تظهرهم وكأنهم الأحرص على قيم المجتمع والأمة ، وهم على المستوى العملي أول من ينتهك قولا وفعلا قيم الأمة والمجتمع . . لذلك فإننا نعتقد أن مواجهة ظاهرة التعصب الأعمى للذات وقناعاتها وتاريخها وأفكارها ، يتطلب رفض كل النزعات الأيدلوجية المغلقة سواء كانت حاكمة أو محكومة ، لأنها نزعات تستدعي كل أشكال التعصب ، وتمدها باستمرار بكل أسباب الحيوية والفعالية والاشتغال . .

لذلك لا يمكن محاربة ظاهرة التعصب ، إلا بالوقوف بوعي ضد كل النزعات الأيدلوجية المغلقة ، التي لا ترى إلا ذاتها وجماعتها ولا يتسع منطقها لمنطق التعدد والتنوع والانفتاح . .لذلك هي تحارب كل هذه القيم ، لأنها قيما مضادة لنهجها ومسيرتها الأيدلوجية والاجتماعية . .

وحينما نرفض النزعات الأيدلوجية المنغلقة ، فإننا لا نرفض فكرة الالتزام الأيدلوجي ، لأنها بشكل عام من الحاجات الضرورية للإنسان ، بحيث من الصعوبة أن نجد إنسانا بدون منظومة أيدلوجية تشكل بالنسبة إليه هي معيار الخير والشر ، ومرجعيته الأخلاقية والسلوكية في الحياة . . ولكن ما نرفضه هي النزعات الأيدلوجية ، التي تتعامل مع قناعاتها وأفكارها بوصفها

، هي طوق النجاة والنجاح الوحيد ، وتمارس القهر والعسف لتعميم هذه القناعات والأفكار ، وتتعامل معها أي الأفكار والقناعات بوصفها متعالية على الزمان والمكان وغير خاضعة لشروطهما ومقتضياتهما . . فيتم التعامل مع قناعات الذات وكأنها حقائق علمية نهائية ، ليست قابلة للفحص والمراجعة والنقد . .

والذي يتجاوز أو يرفض هذه القناعات فكأنه تجاوز الحق إلى الباطل ، لذلك فهو سواء كان فردا أو جماعة ، يحارب في وجوده وحقوقه المعنوية والمادية . .

لذلك على المستوى المعرفي والاجتماعي ، العلاقة جد عميقة ووطيدة بين الأفكار والقناعات الدوغمائية المغلقة سواء كانت هذه الأفكار دينية أو دنيوية ، سماوية أو وضعية وبين ظاهرة التعصب . .

فالإنسان الذي يرى أن أفكاره تساوي الحق والحقيقة ، فإنه سيتعصب لها ويحارب من أجلها ، ويحدد موقفه من الآخرين انطلاقا من موقف هؤلاء من أفكاره وقناعاته . . ولا ريب أن هذه الممارسة التعصبية ، تتجاوز قيمة الالتزام . . فالإنسان من حقه أن يلتزم بأي فكرة أو نظرية أو أيدلوجيا ، ولكن ليس من حقه أن يتعامل مع أفكاره بوصفها هي الحقيقة الوجودية النهائية ، والتي يخالفها ، يخالف الحق ، وينصر الباطل . .

وإن الخيط الدقيق الذي يفصل بين الالتزام الأيدلوجي والتعصب الأيدلوجي المقيت ، هو حينما يمارس الفرض والقهر والحرب لتعميم أفكاره وقناعاته . . فحينما يمارس العنف بكل أشكاله ، لتعميم قناعاته فهو يتجاوز حدود الالتزام الطبيعي ، أما إذا اعتز الإنسان بأفكاره ، وعمل على تعميمها بوسائل سلمية – طبيعية ، وتعامل مع قناعاته بوصفها حقائق نسبية قابلة للصح وقابلة للخطأ في آن ، فإنه يمارس التزامه الطبيعي ، وهذا بطبيعة الحال من الحقوق الطبيعية لأي إنسان . .

من هنا فإننا أحوج ما نكون اليوم ، إلى خطاب ديني واجتماعي منفتح وإنساني وينبذ العنف ويحارب التعصب بكل أشكاله . .

لأن هذا الخطاب هو القادر على تدوير الزوايا ، وتنمية المساحات المشتـــــــركة بين جميع الأطراف والأطياف ، ويحول دون عسكرة المجتمعات واندفاعها صوب العنف وممارسته . .

لذلك فإننا نعتقد أن الخطاب الديني – الإنساني والمنفتـــــــــــح والمتسامح هو أحد ضرورات ومتطلبات انجاز وتعزيز الأمن الاجتماعي والسياسي للمجتمعات الإسلامية المعاصرة . .